العرب
الأربعاء 2021/08/11
السنة 44 العدد 12145

تونس في انتظار إعلان دستوري

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

دخلت تونس الأسبوع الثالث من فترة الشهر التي حددها الرئيس قيس سعيّد لتجميد كافة صلاحيات مجلس نواب الشعب وفق بيان الخامس والعشرين من يوليو، وتعليق نشاط البرلمان وفق ما ورد في الجريدة الرسمية، فيما لا يزال التونسيون ينتظرون الخطوات القادمة، ولاسيما أن تدابير الرئيس شملت توليه كافة السلطات التنفيذية تزامنا مع إعلان حل الحكومة.

اعتمد الرئيس سعيّد في تدابيره على الفصل 80 من الدستور، وفق تأويلات اعتبرها الكثير من الخبراء والسياسيين انقلابا على الدستور، فيما رآها آخرون حقا دستوريا لمن يمتلك شرعية إنقاذ البلاد من الخطر الداهم وفق ما يراه صالحا، ويمتلك المشروعية المنبثقة أساسا من الإرادة الشعبية.

اليوم هناك من ينتظر على أحرّ من الجمر ماذا سيحدث في قادم الأيام. قصر الإليزيه أعلن السبت الماضي أن الرئيس التونسي أبلغ نظيره الفرنسي إيمانويل ماكرون بأنه "سيكشف قريبا عن خارطة الطريق للفترة المقبلة وأنه سيواصل إيلاء الشرعية الشعبية ما تستحقه من مكانة وأهمية".

ماكرون هو الذي اتصل بقيس سعيّد، والرئاسة التونسية لم تعلن عن الاتصال، والكثير من القوى السياسية ومنظمات المجتمع المدني في تونس أكدت أنها في انتظار خارطة الطريق التي سيعلن عنها الرئيس.

أهم ما يترقبه التونسيون هو الإعلان عن تكليف شخصية وطنية بتشكيل الحكومة بعد أن أصبحت حكومة هشام المشيشي في خبر كان، وعندما قرر الرئيس ملء بعض الفراغات في الوزارات، اعتمد على مبدأ تعيين شخصيات مكلفة بالتسيير، لا وزراء، احتراما منه لنصوص الدستور، لكن المرحلة القادمة لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، كما لا يمكن للرئيس أن يغامر بدفع التأييد الشعبي الكبير الذي يحظى به ثمنا لعودة البرلمان إلى النشاط ليمنح ثقته للحكومة الجديدة.

هناك حالة رفض في الشارع التونسي لعودة البرلمان ولأي ظهور من جديد لرئيسه راشد الغنوشي في واجهة الأحداث، كما أن حركة النهضة تبدو اليوم في حالة من العزلة الشعبية والسياسية، وفتح أي باب أو حتى نافذة للحوار معها سيعتبره الشارع الذي ساند إجراءات الخامس والعشرين من يوليو تراجعا من قبل الرئيس الذي قال "لا تراجع ولا عودة إلى الوراء".

العارفون بشخصية قيس سعيّد يدركون أنه لن يتراجع فعلا عن موقفه ولاسيما في ما يتعلق بطبيعة النظام السياسي، ويؤكدون أن صفحة البرلمان الحالي قد طويت، كما أن الحوار مع حركة النهضة غير وارد، ومواقف بعض قادتها وخاصة المتعلقة بتحريض العواصم الغربية والدفع بها إلى التدخل في الشأن المحلي، زاد من تعميق الفجوة بين الطرفين. هناك ممارسات لا يتسامح معها قيس سعيّد وبعضها كان من الغنوشي شخصيا.

كيف ستكون ملامح المرحلة القادمة إذن؟ هناك أمران لا ثالث لهما، فإما تطبيق مخرجات دستور 2014 التي تقيد تحركات الرئيس سعيّد، أو إصدار إعلان دستوري أي دستور مؤقت لتنظيم السلطات خلال المرحلة القادمة، وفسح المجال أمام استفتاء شعبي على شكل نظام الحكم، ومن ثمة الاتجاه إلى تنظيم انتخابات سابقة لأوانها، وبالتالي طي صفحة السنوات العشر الماضية وقطع الطريق أمام الأوضاع التي أدت بتونس إلى أزماتها السياسية والمالية والاقتصادية والاجتماعية.

هناك إدراك إقليمي ودولي بأن الرئيس سعيّد، ومعه أغلبية ساحقة من التونسيين، غير قابلين بالاستمرار في اعتماد النظام السياسي المشتت للسلطات الذي شكلته حركة النهضة على مقاس نظرتها لمؤسسة الحكم. الرئيس الجزائري عبدالمجيد تبون تطرّق إلى هذا الموضوع في حواره مع وسائل الإعلام الأحد الماضي مشيرا إلى أن هذا النظام لا يتماشى مع طبيعة العالم الثالث. وأغلب الفاعلين الدوليين بما في ذلك المؤسسات المانحة، يشيرون إلى أن هناك مشكلة مع تونس أساسها غياب المرجعية الحقيقية التي يستطيعون التعامل معها.

ويبقى أن أي محاولة لتغيير شكل النظام السياسي ستحتاج إلى تعديل في الدستور، وهذا يحتاج إلى رفع التجميد عن البرلمان، وتشكيل المحكمة الدستورية، وتنظيم استفتاء شعبي، وما إلى ذلك من الإجراءات التي تعني عودة النخبة المقصاة في الخامس والعشرين من يوليو إلى واجهة الأحداث من جديد.

لتلافي ذلك، تحتاج المرحلة الحالية في تونس إلى إعلان دستوري. سيجد الرئيس سعيّد سندا شعبيا كبيرا في أي خطوة في هذا الاتجاه، كما أنه سيحظى بدعم من الدول العربية ولاسيما مصر والسعودية والإمارات والكويت والأردن والبحرين والمغرب والجزائر، وسيجد احتراما لقراراته من فرنسا ودول أخرى كالصين وروسيا، وتفهما حتى من الولايات المتحدة ذاتها. هناك اتفاق على أن الرئيس يقود إصلاحات من داخل منظومة ذات شرعية ومشروعية لمواجهة وضع صعب وخطر داهم على بلاده.

خلال الأيام الماضية، وصلت العديد من الرسائل إلى الرئيس التونسي تتمحور حول الثقة في إجراءاته، وتؤكد أنه سيجد من يقف إلى جانبه بصدق لإخراج بلاده من المأزق. بعض الدول وصلت إلى حد التفكير في تخصيص صندوق لمساندة تونس خلال المرحلة القادمة. ولكن الجميع ينتظر الإعلان عن خارطة الطريق التي سيتم الإعلان عنها، باعتبارها ستكشف ملامح التجربة الإصلاحية التي سيتجه الرئيس لتنفيذها. أغلب من يدعمون قيس سعيّد يرفضون العودة إلى الخلف ولو كان ذلك باسم الديمقراطية واحترام الدستور.

إن الإبقاء على الدستور الحالي يعني الإبقاء على إفرازاته ونتائجه السلبية. الرئيس سعيّد كان قد نبّه إلى أن هذا الدستور لا يصلح. وبالتالي سيكون عليه أن يتجاوزه للتأسيس إلى الجمهورية الثالثة بإعلان دستوري يهيئ لدستور جديد غير مفخخ وغير مشتت للسلطات، ولكنه في ذات الوقت يحمي الحريات العامة والخاصة ويؤسس لديمقراطية حقيقية مبنية على أسس الرقابة الشعبية الفاعلة على مؤسسات الحكم.

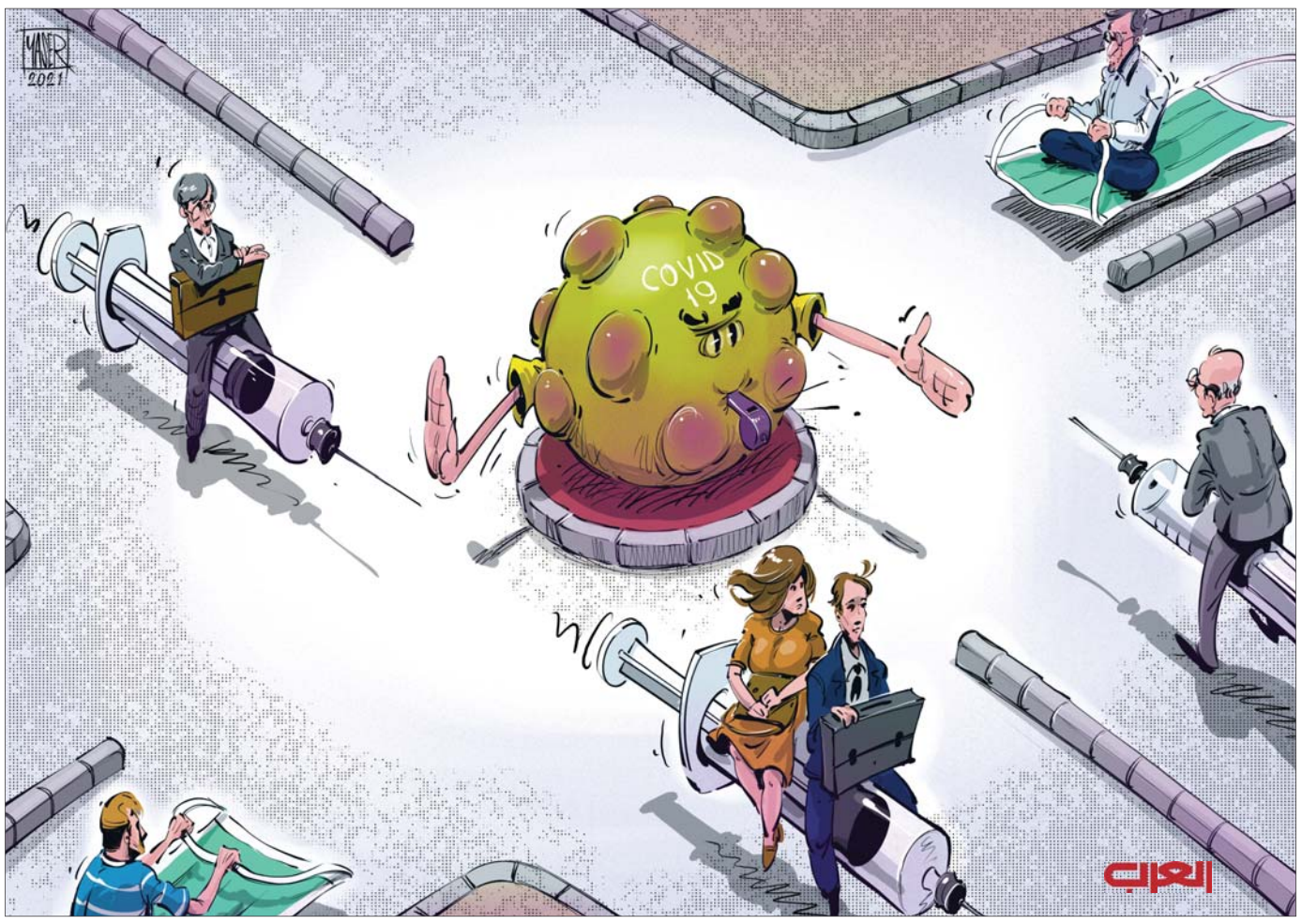

بروح رياضية.. هل خسرنا المواجهة مع كورونا؟

علي الصراف
كاتب عراقي

في صيف العام 1871 رأى الشاعر الفرنسي الشهير آرثر رامبو نفسه في "مركب سكران"، يطوف بالشواطئ والبحار على غير هدى. تتخبّط به الأنواء، كما تتخبط بمدركاته الصور والأماني، إلا أنه يغرق في النهاية. قال المركب:

"في تلاطم الموجِ الغاضبِ
الشتاء الماضي، أكثرُ صمتاً من أدمغةِ الأطفال
ركضتُ، إن أشباه الجزرِ العائمة
لم تشهد قط، ما هو أكثر انتصاراً من فوضاي
باركتْ العاصفةُ يقظاتي البحرية
وبأكثرِ خفةٍ من فلّينة، رقصتُ على الأمواج
التي تُدعى مُدحرجات الضحايا، الأزلية".

مَنْ كان يتخيّل، ساعة كنا في صراع الموجة الأولى من وباء كورونا، أننا سنقع ضحية لموجة ثانية أشرس، ثم ثالثة أشرس منها؟ وهل ثمة من يمكنه أن يضمن أنه لن تكون هناك رابعة وخامسة أشدّ وحشية؟

العلماء يعرفون، على أي حال، أن الفيروسات تتحوّر، وإنه كلما أصيب بها عدد أكبر من الناس، كلما أتيح لها أن تتكيف أكثر مع أنظمة المناعة المختلفة، فتتفوق عليها.

العلماء يعرفون أيضا أن الذين يصابون بمتحوّر، يمكن أن يصابوا بآخر. أما اللقاحات، فهي وإن كانت توفر مقدارا عاليا من المناعة ضد متحور، لأنها أنشئت على أساسه، فإن هذا المقدار يتضاءل أمام متحورات أخرى، حتى يتم التوصل إلى لقاحات جديدة.

نحن في سباق إذن. وهو سباق شرس بين فايروس أسلم قياده للأمواج، وبين مختبرات تتصارع مع المعرفة، وبين حياة الملايين من البشر.

قطاع كبير من هؤلاء البشر في الدول الغنية، يشعر بأنه في مأمن، بما توفّر له من لقاحات. ولكن الحال مختلف تماما بالنسبة إلى الأمم الفقيرة. البشر هناك يستسلمون للحقائق، ويتعاملون معها كأقدار. فإذا نظرت إلى أثر المتحورات حتى على الذين تلقوا اللقاحات، فلسوف تعرف أن الجميع في مركب واحد، وأن الأقدار لا يزال بوسعها أن تكون هي ذاتها الأقدار.

لن يفنى البشر في النهاية. معدلات الوفيات لا تزال محدودة للغاية. ولكن هذا الوباء يفرض شيئين على الأقل. الأول، هو أنه يترك أعدادا ضخمة ممن اعتلّت صحتهم. والثاني، هو أنه يفرض أنماطَ حياة جديدة، ويُعاقب من يتجاسر عليها.

التجاسر على قواعد الوقاية هو ما تُعاقب عليه الآن عدة ولايات أميركية سارعت إلى رمي الكمامات، بينما كان الوباء يدور فيها دورته الثالثة. والمستشفيات عادت لتغص بالمرضى الذين يحتاجون إلى عناية مركزة.

اقتصاديا لم يعد بوسع الدول الغنية أن تستأنف الإغلاقات، ولا أن تدفع تكاليف التعويضات عنها. حتى لكأن الذين عجزوا عن قبول الإغلاقات في الدول الفقيرة هم الذين فازت "نظريتهم" الاقتصادية في النهاية. تلك النظرية كانت تقول "الموت جوعا أسوأ من الموت بالوباء".

الذين استنزفوا قدراتهم على طباعة النقود يقولون الآن الشيء نفسه. بوريس جونسون رئيس الوزراء البريطاني رفع القيود وبلاده في أعلى معدلات الإصابات بالمتحوّر الثالث "دلتا"، ولسان حاله يقول: ما عاد في قوس الصبر منزع.

المختبرات تعمل بأقصى طاقتها، بحثا عن سبيل للحاق. ولكن طبيعة عملها نفسه تجعلها تقف خطوة واحدة على الأقل خلف كل متحور. من ناحية، لأنها لا تستطيع أن تتنبأ بمقوماته قبل أن تراه. ومن ناحية أخرى، لأن تقنياتها الوقائية لا تزال أقل ذكاء وسرعة من تقنيات التحوّر.

لقد كان لقاحا فايزر وموديرنا قفزة حقيقية في الفراغ لاعتمادهما على تقنية ثورية. ولكنهما أصابا الهدف على نحو لم يحققه كل تاريخ اللقاحات، من كل الأوبئة الأخرى. حتى أصبح بوسع هذه التقنية أن تقدم وعدا يكفل القضاء على حزمة واسعة من تلك الأوبئة. ولو تحقق ذلك بالفعل، فإن ذلك يمكنه أن يعلن الفوز بالسباق، إنما بعد أكثر من قرنين منذ أن تم اكتشاف أول لقاح للجدري في العام 1796.

الأوبئة الفايروسية ليست على أي حال كتلك الأوبئة البكتيرية. إنها أسرع تطورا وأكثر فتكا وأسهل تفشيا. وما إن بلغت حدود ما نحن فيه، حيث أصبح التنفس هو الوسيط، حتى صارت الكرة الأرضية كلها بؤرة وباء.

الدرس من هذا كله، هو أننا:

● نعيش في عالم واحد.

> اقتصاديا لم يعد بوسع الدول الغنية أن تستأنف الإغلاقات ولا أن تدفع تكاليف التعويضات، حتى لكأن الذين عجزوا عن قبول الإغلاقات في الدول الفقيرة هم الذين فازت «نظريتهم» الاقتصادية في النهاية

● عالم ما قبل العام 2019 لن يعود. وكلما حاولنا التجاسر على قواعد الحياة الجديدة، كلما تلقينا المزيد من الضربات.

● معايير حياتية جديدة، تتوافق مع متطلبات الوقاية، أصبحت شرطا لازما. العمل عن بعد، والدراسة عن بعد، وإجراءات الوقاية الصارمة، وغير ذلك، تشترط نمطا جديدا للحياة المدنية. شيء يشبه "العودة" إلى أفلام الخيال العلمي التي تقوم على المزيد من العزلة الوقائية بين البشر.

● الأوبئة الفايروسية لا تموت إلا بأن يتوقف البشر عن توفير الوسائط لتفشيها.

● سوف نحتاج للعديد من السنوات قبل أن تتوفر تقنيات ثورية تكفل مكافحة كل التحوّرات.

● العلم، على عبقريته وعظمة إنجازاته، لا يزال أبطأ مما نحتاج.

● الحياة لن تتوقف على وباء. أكثر من نصف البشر سوف ينعمون بالنجاة بمحض وسائلهم الدفاعية الخالصة.

● وبروح رياضية، يحسن أن نعترف أننا خسرنا السباق.

ولا حاجة إلى أن تلقي اللوم على أحد. الأغنياء بحثوا عن سبيل لنجاتهم، ففشلوا. هم تمسكوا بالمعايير الاجتماعية لعالم ما قبل العام 2019 ففشلوا أيضا. طبعوا تريليونات الدولارات، فضاعت. أما الفقراء فما كان بأيديهم أن يفعلوا أكثر مما فعلوه. استسلموا للأقدار، فبدتْ، ظاهريا على الأقل، وكأنها أكثر رأفة بهم.

ولئن رأينا الكثير من فراشات أمل هشة، "وأقاصٍ تتداعي صوبَ الهاوية كمثل الشلالات"، حيث "يلتهمُ البقُّ أفاعيَ عملاقة، لتسقطَ من الأشجار الملتوية، تكتنفها عطورٌ سوداء"، فلقد رأينا في الواقع، أن الكل في المركب نفسه. إنه ذاته "المركب السكران"؛ مركبٌ لم يعرف شيئا أكثر انتصارا من الفوضى. "المركب الذي قذف به الإعصار في أثير لا طائر فيه". وما نحن إلا "غرقى ينزلون القهقرى ليناموا".